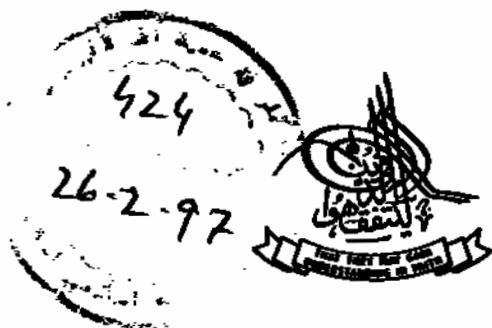


الدراسات الإسلامية

فصلية محكمة

تبحث في الدين والثقافة والتاريخ والآداب



مجمع البحوث الإسلامية

الجامعة الإسلامية العالمية

اسلام آباد - باكستان

العدد الأول - المجلد الثالث والثلاثون

الربيع (رجب - رمضان 1417هـ / يناير - مارس 1997م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عقيدة السيوطي من خلال تفسيره للقرآن الكريم

مروان القيسي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلم على
رسوله وآله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن السيوطي من أكثر المؤلفين المسلمين غزارة وتنوعاً في
إنتاجه. وهاتان سمتان يتميز بهما السيوطي مع عدد من العلماء ماضياً
وحاضراً. فمن اللغة والأدب إلى التوحيد والتفسير والفقه والحديث
إلى غيرها من الموضوعات التي شملت حتى العلاقات الجنسية فهو
بحق موسوعة أدبية، إذ زاد عدد مؤلفاته عن أكثر من سبعين
وخمسمائة سفيراً.

وتأتي أهمية هذا البحث - فيما أرى - من أهمية التعرف على
عقيدة صاحب هذه المؤلفات العديدة. ذلك إن لعقيدة المرء من
الأهمية البالغة في تكوين فكره وسلوكه وجوانب شخصيته المختلفة،
ما يجعلنا حريصين على التعرف على معالمها، ولا سيما إذا كانت
لعالم كسيوطي له من المؤلفات التي لا يستغني عنها طالب الدراسات

العربية والإسلامية، فقيهاً كان أو مفسراً أو لغوياً. أما حصر هذا الموضوع من خلال تفسيره للقرآن الكريم، فلأن القرآن كتاب عقيدة بالدرجة الأولى، إذ تَقَلُّ الآيات الخاصة بالأحكام الفقهية فيه عن نحو ثلاثمائة آية في حين أن الآيات القرآنية الكريمة ذات الصلة بالتوحيد والعقيدة يَرْتَبُو عددها على ستة آلاف آية، بل حتى آيات الأحكام الفقهية لاتخلو من التوحيد ولاسيما توحيد الأسماء والصفات، فلا عجب أن نجد في أكثر تفاسير القرآن الكريم إن لم يكن جميعها، على إختلاف نزعاتها، أن الفروق الاختلافات العقديّة تتجلى عند بحث الأسماء والصفات، وهو من أكثر الموضوعات التي تسببت في نشوء الفِرَق الكلامية وظهور الاختلافات العقديّة. وهذه حقيقة لاينكرها عالم، أن هذه الأمة اختلفت في أصول الدين كما اختلفت في فروعها.

إن البحث في عقائد عوام المسلمين، وتقرير مدى انسجامها مع الأصول الصحيحة، وتحديد معالمها، يختلف عن البحث في عقائد العلماء. ذلك أنه في عقائد العوام يتركز البحث على مدى وضوح تصوّر توحيد الربوبية والألوهية، ومدى نقاء عقيدة الفرد من شركي الربوبية والألوهية. أما العلماء، فالبحث في عقائدهم ينبغي أن يرقى عن هذا المستوى إلى مستوى أكثر دقة وتخصصاً. ولاينبغي أن يُفهم من مقولتي هذه الحطّ من قدرّي توحيد الربوبية والألوهية. وإنما المراد أنهما للعالم من الأمور البديهية. التي ينبغي أن يتجاوزها الباحث لموضوعات أكثر دقة وحساسية.

وإلقاء مزيد من الضوء على ما نريد أن نصل إليه لا بد من التعريف بأنواع التوحيد الثلاث: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. وما يقابل كل نوع ويضاده.

أما توحيد الربوبية:

فهو الاعتقاد بانفراد الله تعالى بالخلق والتصرف والتدبير، والضرّ والنفع والعطاء... إلخ. والشرك في الربوبية إعتقاد شريك لله تعالى في الخلق والتصرف والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع والمرض والشفاء والهداية والإضلال والإحياء والإماتة والنصر والهزيمة إلى غير ذلك من أنواع التدبير والتصرف في الخلق.

وأما توحيد الألوهية:

فهو إفراد الله تعالى بالعبادة والدعاء والاستغاثة والخوف والمحبة والرجاء والإلتجاء والنسك والإنابة والخضوع والتوبة. والشرك في الألوهية هو أي نوع من أنواع العبادة القلبية أو القولية أو الفعلية لغير الله ودعاء غير الله في الأشياء التي تخصّه والتقرب إلى غيره بشيء مما لا يُتقرب به إلا إليه أو أن يُجعل له ندّ في العبادة.

لم يختلف الأئمة الأعلام في هذين التوحيدين. ومن غير المعقول ولا المقبول أن يتم تتبّع عقيدة عالم فذّ كالسيوطي في الله رباً وخالقاً أو تتبّع عقيدته في الله معبوداً يستحق وحده أنواع العبادة كلها. ذلك أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لا يحددان وحدهما معالم عقائد العلماء، وإنما الذي يحدد معالم العقيدة بالإضافة إليهما منتهج تناول هذا العالم أو ذلك لنصوص الأسماء والصفات التي تملأ

كتاب الله تعالى ولا تكاد تخلو منها آية كريمة. فالاختلاف الذي وقع بين طوائف العلماء وأدى إلى نشوء المدارس العقدية، إنما وقع بشكل أساس بسبب اختلاف مناهجهم في التعامل مع آيات الأسماء والصفات.

ولكي يمكننا تحديد معالم عقيدة السيوطي، فإنه لا بد من التعريف بالإتجاهات الرئيسة للفكر الإسلامي في التعامل مع النصوص. ويتضح للدراس لهذه الإتجاهات اتجاهاً رئيساً تمثلهما مدرستان فكريتان: مدرسة النص ومدرسة العقل. وفيما يأتي بعض أهم معالم وسمات المدرستين.

١- المدرسة العقلية:

ويعتقد أتباعها جواز التعارض بين العقل والنقل، وأنه أينما تعارضت ظواهر النصوص مع العقل، فإنه يجب تقديم الدليل العقلي وتأويل ظواهر النصوص بما ينسجم مع العقل، لأن مراد الله عندئذ ليس ما يظهر من النصوص، وإنما أشياء أخرى، إنسجماً مع مبدأ تنزيه الله عن أن يشبه غيره.

وعلى هذا فالتأويل أهم ما يميز المدرسة العقلية. وليس المراد بالتأويل هنا التفسير، وإنما المراد بالتأويل الإخبار عن حقائق الصفات الإلهية وصرف المعنى المتبادر من ظاهرها إلى معان أخرى. يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: "كل خير يشير إلى إثبات صفة للباري "تعالى" يشعر ظاهره بمستحيل في العقل نظر: إن تطرق إليه التأويل قبل و أول، وإن لم يندرج فيه احتمال، تبين على القطع كذب

التاقل، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مسدّد أرباب الألباب ومرشدهم، فلا يظن به أن يأتي بما يستحيل في العقل"^(١). ويقول ابن رشد: "ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه قضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن"^(٢).

أما الرازي فيشير إلى أن "هذه الدلائل النقلية إما أن يقال إنها غير صحيحة، أو يقال إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها، ثم إن جوزنا التأويل واشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم يحز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى"^(٣). ويقول أيضاً: "لابد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار"^(٤). ومثل لذلك بالنصوص التي فيها ذكر الوجه والعين والجنب والأيدي والساق، ويتابع: "فلو أخذنا بالظاهر، يلزمنا إثبات شخص له وجه واحد، وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة، وله جنب واحد وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحدة، ولا نرى في الدنيا أقبح صورة من هذه الصورة المتخيّلة، ولا أعتقد أن عقلاً يرضى أن يصف ربه بهذه الصفة"^(٥). ويضيف قائلاً: "ثبت بكل ما ذكرنا أن المصير إلى التأويل أمر لابد منه لكل عاقل، وعند هذا قال المتكلمون: لما ثبت بالدليل أنه "سبحانه وتعالى" منزّه عن الجهة والجسيمة، وجب علينا أن نضع هذه الألفاظ الواردة في القرآن والأخبار محملاً صحيحاً، لتلا يصير ذلك سبباً للطعن فيها"^(٦).

والقول بتأويل الصفات لا بد أن يسبقه القول بأن هذه الصفات مجاز، وهذا أمر آخر يتسم به المنهج العقلي وهو القول بالمجاز في القرآن، أما النصيون فإنهم ينفون المجاز في كتاب الله ويشترطون أموراً لا بد منها وللأخذ به^(٧).

ومما يتسم به المنهج العقلي كذلك عدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد واعتبارها مصدراً للأحكام العملية فحسب، وهذا من أبرز وجوه الخلاف بين المنهجين العقلي والنصّي.

٢- المدرسة النصّية:

ويعتقد أتباعها إستحالة وقوع التناقض بين العقل والنقل، بل يرون أن بينهما تعاضداً وتأييداً. لكنهم مع ذلك يرون أن في نصوص الكتاب والسنة ألفاظاً قد لا يفهمها بعض الناس أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالعلة منهم لا من النصوص.

ويرى النصيون أنه وإن كانت حقائق الصفات الإلهية مجهولة إستأثر الله بعلمها فهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، لكن معانيها معلومة واضحة ومقبولة شرعاً وعقلاً فلا حاجة إلى تأويلها. وإنما ينبغي إثباتها على وجه يليق بالله تعالى. فهم يشبتون اللفظ ومادلاً عليه من المعاني ويفوضون حقيقة الصفة لله، لكنهم لا ينفون فهمهم المعنى المراد من حيث الوضع اللغوي، فمعنى السمع والبصر الإلهي ومعنى اليد والوجه، معلوم لديهم لكن كيف يسمع الله وكيف يبصر، وحقيقة اليدين والوجه فأمور مجهولة. ويحتجّون بقول مالك: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة".

ويتبادل الفريقان التهم. أما أتباع المدرسة العقلية فيرون أن أتباع المنهج النصي يلزم عليه تشبيه الله بخلقه. وأما أتباع المدرسة النصية فيرون أن أتباع المنهج العقلي يؤدي إلى تعطيل كثير من الصفات الإلهية، وأن هذا التعطيل إنما نشأ بسبب الاعتقاد بأن صفات الله تشبه صفات غيره.

كما أن التعطيل يؤدي إلى تأويل الصفات الإلهية، وهو أمر لا يليق بالمسلم، لأن التأويل يعني الإخبار عن حقائق الصفات الإلهية وهو أمر يستأثر الله بعلمه.

وهكذا فإن أهم ما يميز المدرسة العقلية في تعاملها مع نصوص الأسماء والصفات هو التأويل إبتغاء تنزيه الله. وأهم ما يميز المدرسة النصية إثبات ما أثبتته النصوص من صفات على وجه يليق بتنزيه الله مع تفويض حقيقة الصفة لله. أما أبرز التهم المتبادلة بين الفريقين، فالعقليون يتهمون النصيين بتشبيه الله بخلقه، والنصيون يتهمون العقلين بتعطيل الصفات الإلهية وتأويلها. ونحن هنا لسنا بصدد عرض أدلة الفريقين ومناقشتها، وإنما غايتنا أن نتمكن من تحديد معالم عقيدة السيوطي في ضوء أبرز اتجاهين في تفسير القرآن العقدي.

إن من بين أكثر من سبعين وخمسمائة سقراً للسيوطي، فإن مولفاته في الدراسات القرآنية تربو على خمسة وعشرين من مخطوط ومطبوع منها:-

أسرار التنزيل أو وصف الأزهار في كشف الأسرار، الإكليل
 في استنباط التنزيل، التحبير في علم التفسير، الأمالي على القرآن
 الكريم، ترجمان القرآن في تفسير المسند، تفسير آية ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ
 اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تفسير الحلالين، تفسير الفاتحة،
 تناسق الدرر في تناسب السور، التنبيه على اللحن الجلي والخفي في
 القرآن والألفاظ المستكرهة، الجواهر في علم التفسير، حاشية على
 تفسير البيضاوي، خمائل الزهر في فضائل السور، الدر المنثور في
 التفسير بالمأثور، رسالة في أقسام القرآن، رسالة في البسملة، الدر
 النثير في قراءة ابن كثير، رسالة على إعراب البيضاوي لقوله تعالى:
 ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، رياض الطالبين في شرح
 الإستعاذة والبسملة، رسالة في مسألة استعمال ألفاظ القرآن في
 المحاورات، شواهد الإيثار في حاشية النور، فائدة سورة الأنعام،
 الفتاوى القرآنية، فتح الجليل للبعد الدليل في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ
 الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، لباب النقول في
 أسباب النزول، مجمع البحرين ومطلع البدرين، مجاز الفرسان إلى
 مجاز القرآن، المتوكل فيما في القرآن من اللغات العجمية، نقولات
 في علوم القرآن، الناسخ المنسوخ في القرآن، ميزان المعدلة في شأن
 البسملة، المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، الأزهار الفاتحة
 على الفاتحة، معترك الأقران في إعجاز القرآن.

لكن ما هي أعمال السيوطي ذات العلاقة بهذا البحث. إن
 كثيراً مما كتبه رحمه الله في الدراسات القرآنية ليس له صلة

بموضوعنا من ذلك أعماله الآتية:- الناسخ والمنسوخ في القرآن،
لباب النقول في أسباب النزول، أسرار ترتيب القرآن، تناسق الدرر
في تناسب السور، مفحّمات الأقران في مبهمات القرآن، المهذب
فيما وقع في القرآن من المعرب، القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة،
وغيرها مما ليس له علاقة بعقيدة السيوطي في تفاسيره.

أما المصادر التي ينبغي الرجوع إليها للخروج بصورة واضحة
عن عقيدة السيوطي من خلال تفسيره فهي أي عمل من أعماله
خصّصه كلياً أو جزئياً للتفسير ويأتي في مقدّمة ذلك معترك الأقران
في إعجاز القرآن، من ثلاثة أجزاء والدرّ المنتور في التفسير بالمأثور
من ثمانية أجزاء، وتفسير الجلالين وقد كان نصيب السيوطي فيه من
سورة الفاتحة إلى سورة الكهف، لكن لا أرى ما يمنع أن يُعامل
النصف الثاني وهو من تفسير شيخ السيوطي جلال الدين المحلي
على أنه مما يراه ويعتقده السيوطي، ومن ذلك أيضاً الإكليل في
إستنباط التنزيل، والتحبير في علم التفسير والإتقان في علوم القرآن.

ويمكن لنا أن نبين - بعد البحث في المصادر ذات الصلة

بالموضوع - ما يأتي:-

أولاً: السيوطي والمجاز في القرآن الكريم:

قال رحمه الله: "وقد أنكر قوم وقوع المجاز فيه، وقالوا: إنه
أخو الكذب، والقرآن منزّه عنه، وإن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا
ضاعت الحقيقة فيستعير، وذلك محال على الله تعالى. وهذه شبهة
باطلة، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن، فقد اتفق

البغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب خلو القرآن عن المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتكنية القصص وغيرها^(٨). وقال أيضاً: "ونفى الظاهرية وقوع المجاز في القرآن وقد اتفق أهل البلاغة على أن المجاز أبلغ من الحقيقة"^(٩).

غير أن ما ذهب إليه السيوطي لا يدل على أنه في هذا الأمر من أتباع المدرسة العقلية، ذلك أن القول بالمجاز الذي تتميز به المدرسة العقلية هو فيما إذا كان المجاز قد وقع في صفات الله تعالى، وفيما إذا كان المراد منها غير المعنى الذي يتبادر إلى الذهن. والحق أن أنواع المجاز التي ذكرها السيوطي بعد مقولته الأولى التي وردت آنفاً، والأنواع التي ذكرها في كتابه "الإتقان" ليس شئ منها متعلقاً بذلك النوع الذي تسبب في اختلاف عقدي بين المدرستين، وإنما هي ضروب بلاغية لا يكاد يُنكر وقوعها في القرآن الكريم أحد، وقد ذكر منها السيوطي في "معترك الأقران": الزيادة، إطلاق واحد من المفرد والمثنى والجمع على آخر، التقديم والتأخير، تذكير المؤنث تفضيماً له، إسناد الشئ إلى ما ليس له للملابسة، القلب، نسبة الفعل إلى شيئين هو لأحدهما فقط.

وفي كتابه "الإتقان في علوم القرآن" يقول السيوطي: "وقد أفرد الإمام عز الدين بن عبد السلام المجاز في القرآن الكريم بالتصنيف، وقد لخصته مع زيادات كثيرة في كتاب سمّيته مجاز القرسان إلى مجاز القرآن"^(١٠).

ويذكر السيوطي أنواعاً أخرى من المجاز غير التي ذكرها
آنفاً منها:

إطلاق اسم الكل على الجزء وعكسه، إطلاق اسم الملزوم
على اللازم وعكسه، إطلاق المسبب على السبب وعكسه، تسمية
الشيء باسم ما كان عليه، تسمية الشيء باسم ضده، إضافة الفعل إلى
ما يصح منه تشبيهاً، القلب، وغيرها.

وهناك أمر آخر يجب التنبيه إليه وهو وقوع الاختلاف بين
علماء اللغة والبلاغة فيما يتضمنه المجاز، فليس بينهم اتفاق على
مضمونه وفحواه، لذا وجب الانتباه عند بحث صلة المجاز بالمسائل
العقدية ولاسيما مسائل الصفات لهذين الأمرين:

- ١- أن المجاز مثار الجدل بين أتباع المدرستين النصية والعقلية
هو ذلك الذي يترتب على القول به تأويل الصفات الإلهية.
- ٢- أن مضمون المجاز مختلف عليه وليس هناك إجماع على
فحواه^(١).

ثانياً: السيوطي وتشابه القرآن الكريم:

إن التعرف على موقف السيوطي من المتشابه ضروري وذلك
لما للمتشابه من صلة بصفات الله وتأويلها إذا قلنا بأن تأويل المتشابه
ممكن، أو تفويض حقيقتها إذا قلنا بأن تأويل المتشابه أمر لا يعلمه إلا
الله.

يسوق السيوطي الآراء المختلفة حول العلم بحقيقة المتشابه
من القرآن الكريم فيقول: "واختلف هل المتشابه مما يمكن الإطلاع

على علمه أو لا يعلمه إلا الله على قولين، منشؤهما الاختلاف في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾، هل هو معطوف ويقولون حال، أو مبتدأ خبره يقولون والواو للإستئناف. وعلى الأول طائفة يسيرة، منهم مجاهد.

وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة فذهبوا إلى الثاني، وهو أصح الروايات عن ابن عباس. قال ابن السمعاني: لم يذهب إلى القول الأول إلا شردمة قليلة، واختاره الغنيمي. قال: وقد كان يعتقد مذهب أهل السنة، لكنه سقط في هذه المسألة. قال: ولا غرور فإن لكل جواد كِبوة، ولكل عالم هفوة.

قلت: ويدل لصحة مذهب الأكثرين ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره والحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: وما يعلم تأويله إلا الله. ويقول الراسخون في العلم آمناً به، فهذا يدل على أن الواو للإستئناف، لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة فأقل درجاتها أن تكون خيراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن، فيقدم كلامه في ذلك على من دونه.

ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيع وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه. كما مدح الله المؤمنين بالغيب.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ.. ﴿ إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ أَلْبَابٍ﴾. قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم" (١٢).

ولكن هل يرى السيوطي آيات الصفات من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أم يراها من المتشابه الذي يمكن أن يعلمه الراسخون في العلم؟

أما الجواب عن هذا السؤال فنجده في قول السيوطي: "من المتشابه آيات الصفات. ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد، نحو ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ونحوها.

وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد إلى الله تعالى، ولا تفسرها مع تنزيها له عن حقيقتها.

أخرج أبو القاسم اللالكائي من طريق في السنة، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، قالت: كيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والحجود به كفر.

وأخرج أيضاً عن محمد بن الحسن، قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الترمذي في الكلام على حديث الرؤية: المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة أنهم قالوا: نروي هذه الأحاديث كما جاءت ونؤمن بها، ولا يقال كيف؟ ولا تفسر ولا توهم.

وذهبت طائفة من أهل السنة أنا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا مذهب الخلف. وكان إمام الحرمين يذهب إليه، ثم رجع عنه، فقال في الرسالة النظامية: الذي نرتضيه ديناً وندين الله به عقداً اتباع سلف الأمة، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها.

وقال ابن الصلاح: وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأبأها^(١٣).

ويؤكد السيوطي تصنيفه لصفات الله بأنها من المتشابه مرة أخرى فيقول: "والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى، وأوصاف القيامة، فإن تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو ليس من جنسه"^(١٤).

وفي كتابه "إتمام الدراية" يذهب السيوطي إلى أبعد من ذلك مصرحاً باتباعه لمنهج المدرسة النصية فيقول: وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات نؤمن بظاهره ونزله الله عن حقيقته كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ و ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَتُصَنَعَنَّ عَلَى عَيْنِي﴾ وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١٥).

ثالثاً: موقفه من التأويل والتفويض:

لا يمكن للباحث عن عقيدة السيوطي في تفاسيره أن يحتج بتفسيره لآيات قرآنية معينة في تقرير اتجاهه العقدي. ذلك لأنه مثل هذه الآيات يتفق على تفسيرها أصحاب المنهجين العقلي والنصي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ ص: ٣٩ فقد فسرها السيوطي أي تربي على رعايتي وحفظي لك^(١٦) ومثل قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هود: ٣٧ فقد فسرها أي بمرعى منا وحفظنا^(١٧) ومثل قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ البقرة: ١٤٤، فقد فسره بطلب رضاه^(١٨).

إن أتباع المدرسة النصية، وهم الآخذون بظاهر النصوص لا يرون في تفسير السيوطي صرفاً للنصوص آفة الذكر عن ظواهرها بل يرون أن ظواهر النصوص تقتضي هذه المعاني^(١٩) وهي نفس المعاني التي يفسر بها أصحاب المدرسة العقلية هذه النصوص.

ومن هذا القبيل أيضاً ما ذهب إليه السيوطي من تفسيره للمعية في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت: ٦٩، أي بنصره ومعونته^(٢٠) ومن تفسيره للقرب الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ البقرة: ١٨٦، بقوله: "فيه تنزيه تعالى عن المكان وإجابته الداعي والترغيب في الدعاء"^(٢١) ويؤكد ذلك أيضاً تفسيره للآية نفسها في موضع آخر بقوله: ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي قريب منهم بعلمي^(٢٢) وهو معتقد أتباع المدرسة النصية.

وعند تفسيره لصفة استواء الله على عرشه التي كانت ولا تزال مثار جدل حاد بين قطاع غير قليل من أتباع المدرسة العقلية الذين ينفونها وينزهون الله عن الاتصاف بها ويبن أتباع المدرسة النصية الذين يثبتونها على وجه يليق بالله وينفون مماثلة استواء الله لاستواء غيره، فإن السيوطي يثبت الاستواء مع تنزيه الله عن مماثلته لاستواء غيره فيقول: "استواء يليق به" ويكرر هذه العبارة في تفسيره^(٢٣).

وعند تفسيره لصفة المكر وهي من صفات الفعل لله تعالى يقول السيوطي: "وليس مكرهم كمكره"^(٢٤). وهذه العبارة تتضمن إثباتاً لصفة المكر وتنزيهاً لله عن مماثلة غيره في هذه الصفة. ولكن ما موقف السيوطي من تأويل الصفات الإلهية؟ لا يمكن للقارئ لتفسيرات السيوطي أن يحدّد موقف عالماً لأول وهلة. ذلك أنه يذكر معانٍ صحيحة تترتب على الإيمان بهذه الصفات لكنه لا يصرح بتأويلها أو بعدمه، فمثلاً:

- ١ - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح: ١٠ يقول: أي مطلع على مبايعتهم فيجازيهم عليها^(٢٥).
- ٢ - وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ التوبة: ٧٩ أي جازاهم على سخريتهم^(٢٦).
- ٣ - وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ البقرة: ١٥ أي يجازيهم باستهزائهم^(٢٧).

٤ - وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكَرًا﴾ النمل: ٥٠ أي جازيناهم بتعجيل عقوبتهم^(٢٨).

وفي مواضع أخرى من كتبه تجده يذكر تفسيري المدرستين النصية والعقلية دون ترجيح. يقول في كتابه "إتمام الدراية": "فهو كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات تؤمن بظاهره وتنزهه عن حقيقته كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء" رواه مسلم، ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف، وهو أسلم. أو تؤول كما هو مذهب الخلف، فنؤولها في الآيات الاستواء بالاستيلاء، والوجه بالذات، والعين باللطف، واليد بالقدرة، والمراد بالحديث، أن قلوب العباد كلها بالنسبة إلى قدرته تعالى شيء يسير، يصرفه كيف يشاء، كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين أصبعين من أصابعه"^(٢٩).

وهكذا نجد السيوطي إما أنه لا يذكر لنا شيئاً عن حقائق الصفات الإلهية فلا يؤولها، وإما أنه يذكر معان وأثارا تترتب على هذه الصفات وإما أنه يسوق آراء المدرستين دون ترجيح وهذه أمور لانستطيع أن نجزم في ضوئها بموقفه.

غير أننا في مواضع أخرى من مؤلفاته نجدده بصرح بالتأويل
يوضح ذلك الأمثلة التالية:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ﴾ المائدة: ١١٦ يقول السيوطي: "فإطلاق النفس على الله
لمشاكلة ما قبله" ويعرّف المشاكلة بأنها ذكر الشيء بلفظ غيره
لوقوعه في صحبته، وهو نوع مهمّ ينبغي إتقانه لأنه كثير في القرآن
الكريم نحو ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ و ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾
و ﴿مَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ (٣٠).

وعند تفسيره لاستواء الله على عرشه يقول السيوطي:
"الاستواء له معنيان الاستقرار وهو المعنى القريب المورّى به لأنه غير
مقصود لتزيه الحق عنه، والاستيلاء وهو البعيد المقصود المورّى عنه
بالقريب" (٣١).

وفي "معترك الأقران" يُؤول السوطي يد الله بالقدرة قال:
"والذي يلوح من معنى هذه الصفة أنها قريبة من معنى القدرة، إلا
أنها أخصّ، والقدرة أعمّ، كالمحبة مع الإرادة والمشية، فإن في اليد
تشريةً لازماً" (٣٢). لكنه مع ذلك يذكر تفاسير أئمة السلف كمجاهد
وغيره لليد بأنها صفة ذات لا تؤول.

ويتابع السيوطي ذكره لتأويلات بعض الصفات الإلهية فيذكر
أن المعجىء في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي جاء أمر ربك (٣٣).
وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾
الزمر: ٦٧ أي مقبوضة له أي في ملكه وتصرفه.

آخر ما كتبه السيوطي من التفسير:

يدو لي أن آخر ما كتبه السيوطي - وإن كان الحزم والقطع بذلك يحتاج إلى مزيد من البحث - كتابان هما: "الدرّ المنثور" و "مجمع البحرين ومطلع البدرين" أما كتابه "مجمع البحرين ومطلع البدرين" فإننا لانعرف عنه شيئاً إلا ما ذكره عنه السيوطي في كتابه الإتيقان: "وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك، بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلاً، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهو الذي جعلت هذا الكتاب - يعني الإتيقان - مقدمة له" (٣٤).

وأما كتابه "الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور" فهو بحق تفسير بالمأثور "لم يخلط بالروايات التي نقلها شيئاً من الرأي" (٣٥).

وقد جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف. وهو الذي سماه أولاً: "ترجمان القرآن" ثم اختصره وسماه "الدرّ المنثور" وحذف الأسانيد مع عزو كلّ رواية إلى مصدرها من كتب الحديث والتي اعتمد عليها كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير وابن أبي الدنيا.

إن من يستعرض "الدرّ المنثور" يجد السيوطي فيه واحداً من أبرز أعلام المدرسة النصية. فحينما يمرّ بآيات الصفات فإنه يشتها

دون تأويل كما في صفة مجيء الله يوم القيامة. وصفات الاستواء والقبضة والنفس وغيرها^(٣٦).

إن الدر المنثور يعد بحق تفسيراً رائعاً للتفسير بالمأثور وهو كما وصفه د. محمد الذهبي في ضوء دراسته لكتب التفسير بالمأثور الأخرى: "ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى كتاب الدر المنثور، هو الكتاب الوحيد الذي اقتصر على التفسير بالمأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئاً من عمل الرأي كما فعل غيره"^(٣٧).

والمسألة الجديرة بالبحث هنا هل يعد "الدر المنثور" هو آخر ما كتبه السيوطي من التفاسير بحيث يمكن لنا - إذا تأكد لنا كذلك - تقرير اتجاهه العقدي، أم أن آخر تفاسيره هو "مجمع البحرين ومطلع البدرين" وهو الذي يبدو أنه جمع فيه بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي أي بين منهجي المدرستين النصية والعقلية، وهو ما أشار إليه بقوله الذي سقته آنفاً:

لا ريب أن "الدر المنثور" هو التفسير الوحيد للسيوطي للقرآن الكريم كاملاً الذي وصلنا هذا أمر نستطيع أن نجزم به، لأن تفسير الجلالين لا يعد تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم يمكن نسبته للسيوطي.

أما الأمر الذي لا نستطيع أن نجزم به فهو هل يمكن أن يقال إن ما تضمنه "الدر المنثور" من أحاديث وأقوال لأئمة السلف والذي

يمثل المدرسة النصية هو معتقد السيوطي؟ أم أن السيوطي كما وصفه بعض العلماء "رجل مغرم بالجمع وكثرة الرواية" (٣٨).

لقد ورد عن السيوطي إنكاره للتفسير بالرأي فقال "وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة أن التفسير بالرأي حرام مطلقاً لما فيه من الشهادة على الله والقطع بأنه مراده" (٣٩).

وقال أيضاً: "وممن لا يقبل تفسيره المبتدع خصوصاً الزمخشري في كشفه فقد أكثر من إخراج الآيات عن وجهتها إلى معتقده الفاسد بحيث يسرق الإنسان من حيث لا يشعر" (٤٠).

وعلى الرغم من أن هذا البحث محدّد بعقيدة السيوطي في تفاسيره، إلا أنني لا أجد ما يمنعني تمتة للفائدة من الإشارة سريعاً لعقيدته خارج تفاسيره.

١- يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: لا لغيره ولانهاية لعددها، وإنما أخبر الشارع بالتسعة والتسعين في قوله: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ" (٤١).

٢- في كتابه "مفتاح الجنة في الإحتجاج بالسنة" نلمس بوضوح تأكيد السيوطي على أهمية السنة والدور البارز لنصوصها بحيث يبرز وكأنه أحد أئمة المدرسة النصية.

٣- يحتج بأحاديث الآحاد في العقيدة فيثبت نزول عيسى عليه السلام وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وهي أمور ثبتت بأحاديث آحاد (٤٢).

٤- ويقترب السيوطي من المدرسة النصية بمطالبته بالتزام ألفاظ الكتاب والسنة لا ألفاظ المتكلمين عند وصف الله تعالى (٤٣).

٥- ألف السيوطي كتاباً كاملاً في دحض منطق المتكلمين الذي اعتمد على المنطق اليوناني سماه "صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام" وذكر في مقدمته أنه اعتمد فيه على كتاب ابن تيمية من أعلام المدرسة النصية "نقض المنطق" وأثنى على ابن تيمية ثناء عظيمًا. يقول محقق كتاب السيوطي آنف الذكر:

"فالسويطي إذن قدّم لنا فائدة علمية لا تقدر إذ أنه حفظ لنا صورة قريبة جداً من النص الأصلي لابن تيمية. كما حفظ لنا صوراً لكتب أخرى مفقودة أو متعذر الوصول إليها، ولقد كانت هذه إحدى أيادي السيوطي السابغة على الفكر الإسلامي" (٤٥).

هوامش

- ١- المنخول من تعليقات الأصول ص ٢٨٦، بتحقيق حسن هيتو، (بدون معلومات الطبعة).
- ٢- فصل المقال، ص ٣٣.
- ٣- أساس التقديس، ص ٢١١.
- ٤- المرجع السابق، ص ٩٨، ٩٩.
- ٥- المرجع السابق، ص ٩٩.
- ٦- أساس التقديس، ص ١٠٣.
- ٧- ذكر د. محمد خليل الهراس في كتابه "دعوة التوحيد" ص ٥٧. أن صرف اللفظ المستعمل في معنى الحقيقة لا يجوز صرفه عن معناه إلى معنى آخر بطريق المحاز إلا إذا اجتمع له أربعة أشياء:-
 - ١- الأول أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يصح أن يراد من اللفظ بأن يكون اللفظ مستعملاً فيه في لغة العرب، وإلا لأمكن لكل أحد أن يفسر أي لفظ بأي معنى وإن لم يكن له أصل في اللغة.
 - ٢- الثاني أن يكون مع اللفظ قرينة سمعية أو عقلية توجب صرفه عن حقيقته إلى محازه.
 - ٣- الثالث أن لا يكون معارض لتلك القرينة يقتضي إرادة الحقيقة وإلا وجب إرادتها من اللفظ وامتنع تركها.
 - ٤- الرابع أن المتكلم بكلام يريد به خلاف ظاهره لا يد أن يبين ذلك، لا سيما في الخطابات العلمية التي يراد بها الاعتقاد، ويتأكد ذلك إذا كان المتكلم هو أفصح الخلق وأقدرهم على البيان وأحرصهم على إفادة الحق والنصح للخلق، لا يجوز أبداً أن يلقي القول على عواهنه دون أن يبين للناس ما عناه به، وإلا كان ذلك قصوراً في البيان يجب أن ينتزه عنه أفصح الكلام.

- ٨- معترك الأقران، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.
- ٩- التحبير في علم التفسير، ص ٢١٣.
- ١٠- الإتيان، ج ٢، ص ٣٦.
- ١١- انظر لبحث الأنواع المختلفة من المجاز "الإتيان"، ج ٢، ص ٤٠.
- ١٢- معترك الأقران، ج ١، ص ١٣٨-١٣٩ والتحبير في أصول التفسير، ص ٢٢٠.
- ١٣- معترك الأقران، ج ١، ص ١٤٦-١٤٨.
- ١٤- المصدر السابق، ص ١٤٤.
- ١٥- إتمام الدراية لقراء النقاية، ص ٧.
- ١٦- انظر تفسير الجلالين.
- ١٧- انظر تفسير الجلالين.
- ١٨- معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٤٥.
- ١٩- انظر "القواعد المثلى في الأسماء الحسنى" للشيخ محمد صالح العثيمين و
"تنبيهات في الرد على من تأول الصفات" للدكتور فوزان صالح الفوزان.
- ٢٠- معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٢٦.
- ٢١- الإكليل في استبطان التنزيل، ص ٤١.
- ٢٢- تفسير الجلالين.
- ٢٣- تفسيره للآية: ٥٤ من سورة الأعراف والآية: ٢ من سورة الرعد في تفسير
الجلالين.
- ٢٤- تفسير الجلالين.
- ٢٥- تفسير الجلالين.
- ٢٦- تفسير الجلالين.
- ٢٧- تفسير الجلالين.
- ٢٨- تفسير الجلالين.
- ٢٩- إتمام الدراية، ص ٧.
- ٣٠- التحبير، ص ٢٩٠، ٢٩٧.
- ٣١- المصدر السابق، ص ٢٩٦.
- ٣٢- معترك الأقران، ج ١، ص ١٥١.

- ٣٣- المصدر السابق، ص ١٥٣.
- ٣٤- الإتيان، ج ٣، ص ١٩٠.
- ٣٥- النهي، التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٢٥٥.
- ٣٦- انظر على سبيل المثال ج ٢٧ ص ٦٩٩، ج ٢٦ ص ٥١٧، ج ٣ ص ٤٧٣، ج ٨ ص ٥١١، ج ٧ ص ٢٤٧.
- ٣٧- التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٢٥٤.
- ٣٨- التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٢٥٤.
- ٣٩- التحير، ص ٣٢٧.
- ٤٠- المصدر السابق، ص ٣٣٠.
- ٤١- معترك الأقران، ج ٢، ص ٢٢٦.
- ٤٢- انظر "إتمام الدراية لقراء النقاية"، ص ٦-١١.
- ٤٣- المصدر السابق، ص ٦.
- ٤٤- السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٢.
- ٤٥- صفحة (ح) من مقدمة المحقق لكتاب "صون المنطق" الدكتور سامي النشار.

أهم المراجع

- نهي، د. محمد حسين النهي، التفسير والمفسرون، ج ٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.
- سيوطي، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، إتمام الدراية لقراء النقاية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.
- الإكليل في استنباط التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

- الدر المتثور في التفسير المأثور، ج ٨، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.
- التبحير في علم التفسير، دار المنار - القاهرة، ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، بدون معلومات أخرى.
- مفتاح الجنة في الإحتجاج بالسنة، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج ٢، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
- عثيمين، محمد بن صالح العثيمين، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، مكتبة ابن الجوزي، الهفوف، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- فوزان، د. صالح بن فوزان الفوزان، تنبيهات في الرد على من تأول الصفات، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، الرياض، ١٤٠٥هـ.